# شؤون صغيرة

هل تؤمنون أنّ للأشياء الجامدة أعمارًا كما للإنسان والحيوان؟ هل حدث معكم أنّكم أعلنتم عن رغبتكم في شراء ثلّاجة أو غسّالة جديدة وفي اليوم التّالي تعطّلت الثّلاجة أو الغسّالة، كأنّها شعرت باستغناء النّاس عنها؟ يبدو الأمر غريبًا لكنه يحدث.

أنا أؤمن أنّ للأشياء أعمارًا وأنّها رغم جمادها تنبض وتحسّ.

مات أبي وترك وراءه مكتبة. مكتبة قيّمة، كانت مصدر فخره واعتزازه حتى أنّه وضعها في غرفة الضّيوف كأنّه يستعرضها أمام ضيوفه الكُثر، الذين طالما أبدوا اعجابهم بها. زرت بيتنا القديم ودخلت إلى غرفة الضّيوف، إلى المكتبة. شعرت بكميّة هائلة من الحزن والأسى، حُزن الكتب القيّمة التي لم يلمسها أو يفتحها أحدٌ منذ وفاة والدي. كنت قد اقترحت أن نقوم بالتّبرّع بها لإحدى المكتبات أو المدارس وبالفعل توجّهنا لعدّة مؤسسات التي بدورها رفضت عرضنا بأدب ولباقة بادعاء أنّه لا مكان لديهم ولا متّسع، أو أنّ نقل الكتب وتصنيفها يكلّف غاليًا.

أحبّ الكتب وأحبّ رائحتها وملمسها. لطالما افتخرنا بامتلاكنا لكتاب فريد أو مميّز. لن تجد أمّةً عشقت القراءة والكتب مثل ما عشقها المسلمون الأوائل، فالجاحظ كان يستأجر دكّان الورّاقين ليلًا، يبيت فيها للقراءة. واسحاق بن راهويه، إمام الحديث والفقه، تزوّج من أرملة لأنّها تملك كتب الشّافعي! ومَرّ ابن الخشّاب النحوي على الورّاقين فاشترى كتبًا بخمسمئة دينار فلم يجد مالًا ليعطيهم، فباع بيته ليسدد قيمة كتبه!

لكن هذه الكتب بحاجة إلى بيت. ومن لا يملك بيتًا لا يحقّ له أن يمتلك مكتبة، فالكتب حبيبة. والحبيبة تحبّ الامتلاك ولا تحبّ عدم الاستقرار أو التّرحال فليس للمتنقّل وطن ولا مكتبة!

لم تكن في الماضي مقاهٍ أو مطاعم أو أماكن لقضاء الوقت كما هو اليوم. وكنّا ونحن الطلّاب والشّباب نذهب إلى المكتبات "لنقرأ"، نحن وأترابنا من كلا الجنسين. فلا أجمل ولا أرقى من الملتقى في المكتبة، حيث نتفاخر بيننا في قراءة الكتب والرّوايات. هل تعرفون قصيدة نزار قبّاني "شؤون صغيرة" والتي يغنّيها كاظم السّاهر؟

من أجمل قصائد نزار قبّاني الذي يصادف هذا الأسبوع ذكرى وفاته الخامسة والعشرين. والتي يقول فيها "ويوم أجيء إليك لكي أستعير كتاب..." من أجمل ما كتب: "لأزعم أنّي أتيت لكي أستعير كتاب". حتّى غزلنا في تلك الأيام كان بريئًا أو كما يدّعي أبناؤنا اليوم "كنتوا هُبل". لا مكتبات اليوم للأسف ولا استعارة للكتب! أذكر خلال سنوات عملي كمدير لمدرسة أنّ أمينة المكتبة، التي تمّ إغلاقها اليوم، قد هرعت إلى مكتبي وهي تصرخ غاضبة مستنجدةً: "الحق يا أستاذ أيمن، الطّلاب يسرقون الكتب". أذكر عندها أنني وقفت رافعًا يديّ إلى السّماء شاكرًا وأنا أقول: "الحمد لله الذي أحياني إلى هذا اليوم حتّى أرى طلّابي يسرقون الكتب!"

**دمتم بكل خير**

**أ.أيمن جبارة**